جاهلية الزواج

تميزت عادات العرب القبلية في أصلها قبل الإسلام، بالانحياز للقريب سواء في إسداء المعروف أو دفع الشر، أو حتى الزواج. وفي حينه كانت النساء جزءاً من المتاع الذي تشد من أجله الغارات، وتعقد بسببه التحالفات.

وأُثر أن القبائل العربية تجنح دوماً إلى تزويج أو الزواج من الأشد منها بأساً، حتى تتقي شرها. وأخذ التزاوج بين الأقارب أبشع صوره في نكاح الرجل حليلة أبيه بعد مماته، إذا لم تكن أمه!!

ومع أن الإسلام الذي جاء بعد ذلك، جاعلاً معيار الكفاءة في التزويج هو "التقوى"، حارب العضل أياً كانت دوافعه، إلا أنه لم يفلح كثيراً خصوصاً في أزمنته التي كانت للقبيلة - وليس للإسلام - (كلمة الفصل) فيما يأتي الفرد وما يذر!

وهكذا غدا الزواج من الأقارب الذي لم يعارضه الإسلام بمفهومه البريء شائعاً بألوانه الطوعية والاستبدادية، وبوسع أوهى الدارسين ذاكرة أن يستحضر نماذج من الثاني، في وقت لا تحصى

فيه نماذج الأول، إذ اشتهرت "نوار" الصالحة، بوقوعها في فخ ولاية ابن عمها السفيه الشاعر "الفرزدق"، الذي اصطفاها لنفسه عنوة. وكان لا يتورع من أي موبق لفظي أو سلوكي - على ذمة المؤرخين - فيما احتلت هي المقامات العلية من التنسك والعفاف.

وحين ظفرت بطلقة طائشة منه بعد لحظة غضب من الفرزدق، ولجأت إلى الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير في مكة، تبعها الشاعر الهيمان، وراودها على العودة فتأبت، وتحصنت بالأمير -آنذاك- ابن الزبير، قبل أن يسلمها مكرهة إلى الفرزدق!

ويزعم المؤرخون أن ابن الزبير عارض تسليم "نوارٍ" إلى زوجها أول الأمر، إلا أن الفرزدق عاد إليه هاجياً:

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً

مثل النذير الذي يأتيك عريانا

وهو بذلك يتهم الأمير بأن وقوفه في صف نوار لغاية غير شريفة، فما كان من الصحابي الكريم إلا أن خير "الفتاة الضحية" بين العودة إلى ابن عمها أو قتله! فاختارت العودة إلى الجحيم.

أما النماذج الحسنى من زواج الأقارب، فربما كان أنبلها في التاريخ الإسلامي زواج علي بن أبي طالب رضي الله عنه، من سيدة نساء العالمين فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم. فكانت حياتهما مليئة بالطهر والمحبة والقداسة.

وفي الماضي والحاضر، يجمع الكاتبون الإسلاميون والاجتماعيون الذين اعتنوا كثيراً بهذه الظاهرة، على أن إرغام الأولياء مَن تحت أيديهم من النساء على نكاح أقاربهن، كان الذي جعل من "زواج الأقارب" عنواناً مفزعاً، وسيئ السمعة، وذلك قبل أن تشهد رؤى الأطباء في هذا الاتجاه رواجاً بين الناس.

ومع أن حجر ابن العم على بنات عمه، كانت عادة جاهلية قديمة إلا أن طمع الآباء في أموال بناتهم الآنسات، أصبح نازلة جديدة، تضاف إلى عضل أبناء العم. ما أحوج هيئة كبار العلماء في السعودية عام ٢٠٠٦ إلى إصدار بيان تتوعد فيه الأولياء المجحفون بالملاحقة.

ولدى الحديث عن آراء الأطراف ذات العلاقة بزواج الأقارب راهناً، تبرز على الساحة السعودية ثلاثة أطراف هي: الشبان، والأطباء، وعلماء الدين.

الشبان ذكوراً وإناثاً يختلفون حول المسألة جذرياً، ولا يكاد اثنان يتحدان في رأي حولها: محمد (٢٧) عاماً ينظر لما هو أبعد قائلا: " الزواج من ذوي القربى أصبح مُلِحّاً اليوم، أي لا بد من إلزام ابن العم أو ابن الخال بالزواج من الأقارب بسبب معاناة الكثير من قلة الزواج، فالشاب لم يعد قادراً على تلبية رغبات الفتاة الغريبة التي تريد المال والحب والجاه، وكذلك الفتاة أصبحت تعاني من العنوسة بسبب عدم إقدام الناس على الزواج بها لأنها فقيرة أو بسيطة.. إلخ. وبرأيي فإن زواج الأقارب أمر مُلِحٌّ في أيامنا هذه

وليس له أضرار، فالتطور التكنولوجي والطبي خفف من أضرار زواج الأقارب، وكل شيء بيد الله".

أما "وفاء المحمد" (٢٥ عاماً) فتتحدث إلى الزميل أحمد العمودي وتؤكد رفضها لزواج الأقارب بشكل عام.. مشيره إلى أن زواج الأقارب يدعم تكاثر المشاكل العائلية التي علقت عليها بقولها: "أنا في غنى عنها".

وأشارت إلى أن هناك الكثير من المشاكل في زواج الأقارب، منها الأمراض الوراثية التي قد تصيب الأبناء، إضافة إلى أن أول ليلة من الزواج ستظهر مشاكل قد تؤدي إلى الفصل بين الأزواج وتلاشي فكرة استمرار الحياة الكريمة.

وأكدت أن الخلافات العائلية تتزايد بشكل سريع، فبدلاً من أن تبدأ بواحدة لتنتهي تصبح اثنين وثلاثة وتكبر بين العائلة التي تتناقلها حتى يصبح جميع أفراد العائلة في نزاع متواصل.. مما يدعم فكرة عدم الاقتران بقريب.

وهناك إبراهيم الذي لم يهتم بالقرب ولا البعد، وإنما " فتاة أحبها وتحبني، وتملك مواصفات لا أتنازل عنها، ويكون بيننا تلاقٍ فكري، ولا بأس ببعض البهارات المرغبة لي أكثر، مثل أن تكون موظفة، وابنة أسرة (كشخة)" ضاحكاً.

وإبراهيم على أنه ظن أن ما قاله مجرد نكتة، إلا أنه في واقع الأمر أحد أسباب تفضيل شباب اليوم والأمس للبحث عن شريكة حياة بعيدة عن أسرته.

أما الأطباء فإنهم كما يقول أستاذ الوراثة في الجامعة الأميركية الدكتور كارل جورج فيرون أن "زواج الأقارب في ذاته ليس عاملاً على إضعاف النسل أو تشويهه بالأمراض والعاهات في كل الأحوال، فإذا لم تكن السلالة نفسها ضعيفة، فلا يمنع أن تظل نقية قوية".

لكنه يستدرك قائلاً: "إلا أن الحالات التي تظل فيها هذه الأسر صحيحة نادرة في التاريخ، ولا يمكن اعتبارها مقياساً، ويؤكد ألف مرة بأن زواج الأقارب مضر من حيث إنه يؤدي إلى تلاقي الخصائص الفاسدة في الأقرباء".

ويعلق الدكتور عز الدين فراج الذي نقل عن جورج قوله بأن "أبرز أثر لزواج الأباعد أمامنا في العالم الأميركي الجديد، إذ نجد سلسلة من شعوب مختلفة، استوطنت أميركا. وهذا الاختلاف والتباين بين الشعوب التي نزحت إلى أميركا قد أدى إلى تحسين النسل من الناحية الجسمانية والعقلية".

ولا يجد علماء الدين من جانبهم إشكالاً شرعياً في التزاوج بين الأقارب، أما إذا ثبت أن رجلاً وامرأة سيترتب على زواجهما (مرضٌ أو عاهة) فإن الشريعة تنهى عن ارتباطهما سواء كانا قريبين أو بعيدين. وكانت وزارة العدل السعودية فرضت في ١٤٢٥/١/١٥هـ الفحص قبل الزواج، ووجهت مأذوني الأنكحة بعدم العقد إلا للمتوافقين من الناحية الطبية، بعد أن شهدت السعودية تنامياً في ولادة ذوي الإعاقة.

ويجيب الداعية السعودي الشهير سلمان العود من سأله عن حكم الزواج بين الأقارب قائلاً: "يجوز الزواج من الأقارب، لكن الأطباء لا ينصحون به إلا مع الكشف، لأنه يكون أحياناً سبباً في حدوث مرض للأولاد، وهذا مجرّب".